كتاب
تجديد التفكير الدينى
فى الإسلام
تأليف
إبراهيم حلمى

تجديد التفكير الدينى فى الإسلام

كتاب ألفه فيلسوف باكستان محمد إقبال

وترجمه الأستاذ عباس محمود وراجعه الأستاذ عبدالعزيز المراغى والدكتور مهدى علام... ويقع فى ستة أقسام على امتداد ٢٢٧ صفحة من الحجم الكبير...

١ – المعرفة والرياضة البدنية.

٢ – البرهان الفلسفى على ظهور التجربة الدينية.

٣ – الألوهية ومعنى الصلاة.

٤ – روح الثقافة الإسلامية.

٥ – مبدأ الحركة فى بناء الإسلام.

٦ – هل الدين أمر ممكن؟

يصف محمد إقبال «الإيمان» بأنه (كالطائر يعرف طريقه الخالى من المعالم غير مسترشد بالعقل. وفى هذا يقول شاعر الإسلام الصوفى العظيم– لم يصرح باسمه ولعله يقصد جلال الدين الرومى – «العقل يترصد القلب قلب الإنسان النابض ويحرمه ذلك الزخر من الحياة الكامنة فيه». على أننا لا نستطيع أن ننكر أن الإيمان أمر أكثر من مجرد الشعور، فهو فى حقيقته يشبه رضا النفس عن علم ومعرفة).

وهو يرى الفكر... والبداهة متكاملين لا متضادين فهما ينبعان من أصل واحد فأحدهما يدرك الحقيقة جزءا جزءا، والآخر يدركها فى جملتها... أحدهما يركز على ما

فيها من خلود والثانى نحو ما فيها من حدوث ويستشهد بقول «بركسون» «إن البداهة ليست إلا ضربا عاليا من التفكير».

وعند إقبال أن الفلسفة اليونانية مع أنها وسعت آفاق النظر العقلى عند مفكرى الإسلام إلا أنها غشت على أبصارهم فى فهم القرآن... فمثلا سقراط كان يقصر همه على عالم الإنسان وحده فمعرفة الإنسان معرفة حقة تكون بالنظر فى الإنسان نفسه بينما القرآن الكريم يأمرنا بالنظر فى أنفسنا وفى الآفاق. فعالم النبات والحيوان... والسماء والنجوم... والأرض والبحار والجبال والنمل والنحل... والشمس وضحاها والقمر... والليل والنهار وتصريف الرياح وكل ما دب على الأرض أو حلق فى الفضاء... كلها موضوعات لتأمل الإنسان وبحثه بينما قدح أفلاطون - وفيا لتعاليم أستاذه سقراط - فى الإدراك الحسى لأن الحس فى رأيه يفيد الظن ولا يفيد اليقين... وما أبعد هذا عن تعاليم القرآن الذى يعد العقل والسمع والبصر أجل نعم الله تعالى على عباده.

وناقش إقبال آراء الغزالى وابن رشد والأشاعرة والمعتزلة.

وقد استشعر إقبال محنة الاختيار التى يقع فيها الشرقى بين حضارته وحضارة الآخرين التى تجسمت فى الوقت الحاضر. وعنده أن أبرز ظاهرة فى التاريخ الحديث هى السرعة الكبيرة التى ينزع بها المسلمون فى حياتهم الروحية نحو الغرب. ولا غبار عنده على هذا المنزع فإن الثقافة الأوربية فى جانبها العقلى ليست إلا ازدهارا لبعض الجوانب الهامة فى ثقافة الإسلام... ويقول إقبال (كل الذى نخشاه هو أن المظهر الخارجى البراق للثقافة الأوربية قد يشل تقدمنا فنعجز عن بلوغ كنهها وحقيقتها. وكانت أوربا خلال جميع القرون التى أصبنا فيها بجمود الحركة الفكرية، تدأب فى بحث المشكلات الكبرى التى عنى بها فلاسفة الإسلام وعلماؤه عناية عظمى... فلاعجب إذاً أن نجد شباب المسلمين فى آسيا وفى إفريقية يتطلبون توجيها جديدا بعقيدتهم... ولهذا:

لابد من أن يصاحب يقظة الإسلام تمحيص بروح مستقلة لنتائج الفكر الأوربى).

ويرى «إقبال» الهدف الرئيسى للقرآن الكريم هو أن يوقظ فى نفس الإنسان شعورا أسمى بما بينه وبين الخالق وبينه وبين الكون من علاقات متعددة... ومن هنا يقول «جيته» لا كرمان - وكان «جيته» يرى فى الإسلام قوة ذات قدرة، لاتجارى ولا تبارى، على الإصلاح (أنت ترى أن هذا التعليم لا يخفق أبدا، ونحن بكل ما لنا من نظم لا نستطيع، بل أقول بوجه عام، إن أحدا من البشر لا يستطيع أن يذهب أبعد من هذا).

ولإقبال رأى فى الإنسان... فهو مع أن نصيبه فى الوجود شاق، وحياته كورقة الورد، إلا أن الروح الإنسانية ليس لها نظير بين جميع الحقائق فى قوتها، وفى إلهامها، وفى جمالها... ولهذا فإن الإنسان فى صميم كيانه هو كما صوره القرآن، قوة مبدعة وروح متصاعدة تسمو فى سيرها قدما من حالة وجودية إلى حالة أخرى..

(فلا أقسم بالشفق. والليل وما وسق. والقمر إذا اتسق لتركبن طبقا عن طبق). سورة الانشقاق الآيات ١٦ – ١٩.

ويطرح فيلسوف باكستان سؤالا، هو:

(ما الطريقة التى تبدأ بها قوة الله الخلاقة فى الخلق؟)

وهنا يؤثر مذهب الأشاعرة الذى يعتبره أسلم مذهب فى علم الكلام عند المسلمين... هؤلاء الأشاعرة يذهبون إلى أن الله تعالى بدأ بخلق الجوهر الفرد أو الجزء الذى لايتجزأ... ويرجح إقبال أنهم أقاموا رأيهم هذا على الآية الكريمة (وإن من شىء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم) سورة الحجر آية ٢١.

ويرى «إقبال» أن نشوء الكلام فى الجزء الذى لا يتجزأ بين المسلمين ونموه – وهو أول دليل على التمرد العقلى على مذهب ارسطو القائل بعالم ثابت، يسجل فصلا من أهم الفصول فى تاريخ الفكر الإسلامى.

وهنا تجب الوقفة عند رأى الأشاعرة.

يقول الأشاعرة إن العالم يتألف من أشياء اصطلحوا على تسميتها بالجواهر. وهى أجزاء متناهية فى الصغر بحيث لا تقبل التجزؤ والانقسام وبما أن خلق الله للحوادث مستمر غير منقطع، فإن عدد الجواهر لا يمكن أن يكون متناهيا... ففى كل لحظة يخلق فى الوجود جواهر جديدة وهكذا يصبح العالم فى نمو مستمر كما جاء فى الكتاب الكريم (يزيد فى الخلق ما يشاء) فاطر الآية ١.

ويقارن «إقبال» مقارنة تفصيلية شيقة بين قصة آدم فى العهد القديم وبين القصة فى القرآن الكريم. فحين لعن العهد القديم الأرض لعصيان آدم، جعلها القرآن الكريم مستقرا ومتاعا للإنسان ينبغى أن يشكر الله عليه (ولقد مكناكم فى الأرض، وجعلنا لكم فيها معايش، قليلا ما تشكرون) الأعراف آية ١٠.

وطبقا للقرآن ليس الإنسان غريبا عن هذه الأرض إذ يقول : (والله أنبتكم من الأرض نباتا) سورة نوح آية ١٧ .

والجنة فى القرآن الكريم (لا لغو فيها ولا تأثيم) وفى مقام آخر يصفها بقوله (لايمسهم فيها نصب وما هم منها بمخرجين) سورة الحجر آية ٤٨ .

ومن أروع ما جاء فى كتاب (تجديد التفكير الدينى فى الإسلام) ، القسم الخامس (روح الثقافة الإسلامية) .

يستهل هذا القسم على النسق التالى:

«صعد محمد النبى العربى إلى السموات العلا ثم رجع إلى الأرض قسما بربى! لو أنى بلغت هذا المقام لما عدت أبدا» .

هذه كلمات لولى مسلم عظيم هو عبدالقدوس الجنجوهى. ولعله من العسير أن نجد فى الأدب الصوفى كله ما يفصح فى عبارة واحدة عن مثل هذا الإدراك العميق للفرق السيكولوجى بين الوعى النبوى والوعى الصوفى... فالصوفى لا يريد العود من «مقام الشهود» وحتى حين يرجع منه – ولا بد له أن يفعل – فإن رجعته لا تعنى الشىء الكثير بالنسبة للبشر بصفة عامة. أما رجعة النبى فهى رجعة مبدعة إذ يعود ليشق طريقه فى موكب الزمان ابتغاء التحكم فى ضبط قوى التاريخ وتوجيهها على نحو ينشىء به عالما من المثل العليا جديدا... «فمقام الشهود» عند الصوفى غاية تقصد لذاتها. لكنه عند النبى يقظة لما فى أعماقه من قوى سيكولوجية تهز الكون هزا... وقد قدر لها أن تغير نظام العالم الإنسانى تغييرا تاما. ورغبة النبى فى أن يرى رياضته الدينية قد تحولت إلى قوى عالمية حية رغبة تعلو على كل شىء... ولهذا كانت رجعته ضربا من الامتحان العملى لقيمة رياضته الدينية. فإرادة النبى فى عملها الإنشائى، تقدر قيمتها هى كما تقدر عالم الحقائق المحسوسة التى تحاول أن تحقق وجودها فيه. وعندما يتغلغل النبى فيما يواجهه من أمور مستعصية وينفذ إلى أعماقها، تتجلى له حينئذ نفسه فيعرفها، ويزيح القناع عنها فتراها أعين التاريخ. ولهذا كان من بين ما يحكم به على قيمة دعوة النبى ورسالته، البحث فى نوع الرجولة التى ابتدعها والفحص عن العالم الثقافى الذى انبعث عن روح دعوته.

وللمبهورين بالعلم التجريبى فى أوربا، يقول إقبال: فى كتاب «التقريب فى حدود المنطق» يؤكد ابن حزم أن الحس أصل من أصول العلم، وابن تيمية يبين فى كتابه المسمى «نقد المنطق» أن الاستقراء هو الطريقة الوحيدة الموصلة إلى اليقين. وهكذا قام المنهج التجريبى القائل بأن الملاحظة والتجربة هما أساس العلم وأصله لا التفكير النظرى المجرد. وكشف البيرونى عما نسميه زمان الانفعال، وكشف الكندى لتناسب الحس مع الدافع مثلان على تطبيق هذا المنهج التجريبى، زعم خاطىء. يقول دورنج Duhring (إن آراء روجر بيكون Roger Bacon فى العلوم أصدق وأوضح من آراء سميه المشهور).

وهنا يعلق «إقبال»: ومن أين استقى روجر بيكون ما حصله فى العلوم؟ من الجامعات الإسلامية فى الأندلس. والقسم الخامس من كتابه Cepus Majus الذى خصصه للبحث فى البصريات هو فى حقيقة الأمر نسخة من كتاب «المناظر لابن الهيثم» وكتاب بيكون فى جملته، شاهد ناطق على تأثره بابن حزم.

ومن الغربيين يقول بريفولت Briffault مؤلف كتاب «بناء الإنسانية Making of Humanity (إن روجر بيكون درس اللغة العربية والعلم العربى والعلوم العربية فى مدرسة اكسفورد على خلفاء معلميه العرب فى الأندلس. وليس لروجر بيكون ولا لسميه الذى جاء بعده الحق فى أن ينسب إليهما الفضل فى ابتكار المنهج التجريبى... فلم يكن روجر بيكون إلا رسولا من رسل العلم والمنهج الإسلاميين إلى أوربا المسيحية، وهو لم يمل قط من التصريح بأن تعلم معاصريه اللغة العربية وعلوم العرب هو الطريق الوحيد للمعرفة الحقة).

والقرآن الكريم مصدر ثر المنابع انبعثت منه قواعد كثيرة فى الفكر العربى والإسلامى. مثلا: أول قاعدة من قواعد النقد التاريخى هى القاعدة التى تقرر أن أخلاق الراوى عامل هام فى الحكم على روايته. وفى هذا يقول القرآن الكريم: (ياأيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا) سورة الحجرات ٦.

يركز «إقبال» تركيزا مكثفا على الأساس الدينى فى حياة الإنسان فمن لم يجعل الله له نورا فما له من نور... لقد باء «نيتشى» بالفشل لأنه افتقد الإيمان وتأثر بآراء أسلافه من المفكرين أمثال «شوبنهور» و «داروين» و «لانج» تأثرا أعماه كما يقول «إقبال» عند فهم المعنى الحقيقى لرؤياه فانساق إلى محاولة تحقيقها فى نظم مثل التطرف الأرستقراطى بدلا من البحث عن قاعدة روحية تكتمل بها الناحية الإلهية التى فى النفس، حتى فى نفوس الدهماء فتتفتح له أبواب مستقبل لا حد له ولا نهاية.

وهكذا كان الفشل نصيب عبقرى رسمت قواه الداخلية وحدها حدود رؤياه وظل عقيم الإنتاج لأن حياته الروحية كان يعوزها هداية خارجية خبيرة... وكان من سخرية القدر أن هذا الرجل الذى كان يبدو لأصدقائه «كأنه جاء من أرض لم يعش فيها إنسان» كان يدرك تمام الإدراك نقصه الروحانى الكبير.. يقول نيتشى : (أنا وحدى، أواجه معضلة كبرى، وأنا كالتائه فى غابة لم تطأها قدم. أنا فى حاجة إلى العون، أنا فى حاجة إلى أتباع ومريدين، أنا فى حاجة إلى سيد. ما أحلى أن نطيع).

ويقول أيضا (لم لا أجد بين الأحياء من يسمو علىّ فى التفكير، وينظر إلىّ باحتقار؟ ألا اننى بحثت بحثا متواضعا؟ وإنى لشديد الشوق لرؤية أمثال هؤلاء الرجال).

وهنا يقول «إقبال»

فى الحق، أن خطة الدين وخطة العلم، على الرغم من تضمنها مناهج مختلفة، واحدة فى غايتها النهائية فكلهما يستهدف أقصى درجات الحقيقة.

***

كتاب عميق يجمع بين الدين والفلسفة والعلم فى خطوط متوازية ولكنها متحابة... ومثل هذا الكتاب لا تستوعبه فى العرض صفحات محدودة ولكنها إشارات تومىء إليه وتدل عليه... علامة لمن يريد أن يبحر، فيه.